العرب
الأحد 2021/07/04
السنة 44 العدد 12109

شعبوية الذباب الإلكتروني والطنين المسموع

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

ها هي موجة أخرى من الثقافة تمرّ على عالمنا العربي مرور الكرام. إنها موجة الثقافة الشعبوية. أدرك أن الإشارة فيها الكثير من التناقض. الثقافة قائمة على حس الصفوة. الشعبوية صارت مرادفا في عالمنا لفوضى الرعاع. لكن هناك مسمّى "الثقافة الشعوبية" في الغرب والشرق أيضا، وهو مسمّى محترم له وزنه وقيمته مثلما كان لثقافة الهيبيس حضور ملموس في ثقافة الستينات في الغرب (وصلنا منها فقط بناطيل الشارلستون والحشيش واللحى الكثة).

العالم اليوم يشهد حراكا ثقافيا من نوع آخر فيه صعود قوى عظمى وسقوطها بينما الغرب يهمل الشرق الأوسط ثقافيا

المشهد الثقافي السائد في عالمنا العربي إلى اليوم هو مشهد كولونيالي/ يساري. تركة الاستعمار الغربي محسوسة رغم أنه ارتحل منذ زمن بعيد. للدقة، وفيما عدا استثناءات محدودة جدا، فإن الاستعمار الغربي لم يثبّت أقدامه في منطقتنا. لكن تعلم المثقفون منه الكثير، وخصوصا على أيدي اختيارات المترجمين المتنوّرين. الثقافة في الغرب كانت تكتب لناسها وكانت تكتب لنا من دون أن تعلم.

الثقافة اليسارية كانت الرد على هذه التركة. كتب الأدب الروسي المترجمة والمجانية قدّمت البديل للمثقف في المنطقة. كتب الفكر الشيوعي كانت تنثر على رؤوس الشعوب العربية. اقرأ "رأس المال" لكارل ماركس ولا تضيع وقتك في "ثروة الأمم" لآدم سميث. فوق كل هذا، لديك تنظيمات شيوعية ويسار فكري يدعمانك.

يمكن أن تحضر جدلا سياسيا عن أهمية الشيوعية في مواجهة الرأسمالية وأنت جالس على حافة ترعة تغذيها مضخة خشبية تديرها جاموسة. اليسار يحبّ الخيال.

الحركات الشوفينية الوطنية ذهبت إلى السوبرماركت الأيديولوجي. مسؤول يلقي خطابا عن أهمية المساواة كتبه له مثقف. يصعد على منصة أمام حشد من المعدمين. تنتهي الكلمة ويركب سيارته المرسيدس الفاخرة. زعيم تصفّح كتب الديمقراطية الغربية ويصرّ على أن يضيف كلمة ديمقراطية على اسم الدولة المستقلة حديثا.

ما عيبها الديمقراطية إذا كانت تعيد انتخابي؟ عسكر يحاربون الاستعمار بعد إتمام صفقة السلاح الغربي. زيادة الإحساس بالتأثير الشيوعي الملحد وعمق العلاقة مع موسكو عند الزعيم خصوصا بعد صلاة الجمعة أو صلاة العيد.

كتلة التناقضات هذه كانت تغذيتها تتمّ بدرجة كبيرة من الريع النفطي. ثم بدأت الحروب تتغذى على هذه التناقضات وجاء المد الخميني الإخواني. المثقفون الكولونياليون/ اليسار صار أمامهم وحش من نوع آخر الآن. استسلموا بسهولة. طوّعوا أنفسهم أو هاجروا.

ثم ساد سكون ثقافي إلى حين جاءت ثورة الشبكات الاجتماعية. الكل استفاد منها. من دكتاتور سخيف إلى رجل دين مضحك وصولاً إلى كاتب تحاربه الصحف لمواقفه. كانت البدايات مبشّرة لكن كثرت الضوضاء وساد الذباب واختلطت الصورة.

اختلاط الصورة ليس مبرّرا للانسحاب. مثقفنا لم يبذل الكثير من الجهد. تعوّد على السهل. لا يزال ضمن القالب القديم: موقع وجريدة ومجلة وحضور الندوات ومعارض الكتب ثم فرصة على فضائية. منابر صحيحة وحقيقية ومهمة. ولكن شخصية انتهازية بذكاء لافت وثقافة محدودة مثل الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب انتبهت إلى أن هذه المنصات الثقافية والإعلامية ليس فقط لا تكفي، بل يمكن أن تكون معادية. هرج ومرج غير مسبوقين في الولايات المتحدة والعالم. تغريدات على تويتر تكفي. مع هذه التغريدات والجدل من حولها كبر الإحساس بالثقافة الشعبية، الساذجة منها والمتماسكة فكريا.

هذه ساحة المعركة. الذباب يحارب الذباب، لكنّ المثقفين يقارعون المثقفين أيضا. الصورة هناك لجدل أوصلنا إلى مشهد سياسي غربي جديد، يسمى شعبويا، لكنه مخاض للتغيير الذي نحسه الآن. نحن اكتفينا بمعارك الذباب. الطنين مسموع رغم أن من غذّى الذباب بالعسل قد وضع ذبابه في قوارير زجاجية لاعتبارات سياسية.

العالم اليوم يشهد حراكا ثقافيا من نوع آخر. إنه من نوع صعود قوى عظمى وسقوطها. الغرب لا يغادر الشرق الأوسط عسكريا اليوم وحسب، بل يهمله ثقافيا. ماذا تفعل مع أمّة تنشر فيها وكالة أنباء رسمية خبرا عن صبيّ حفظ القرآن؟ ماذا تفعل لبلاد تخرج بالملايين لسماع خطبة معمّم من الصعب تفسير ما يقوله، أو أيّ موضوع سيثير، من محاربة الولايات المتحدة إلى كرة القدم؟

الغرب يترك الشرق الأوسط لحاله. المركز الصناعي/ السياسي الصاعد في الصين هو المهم. هناك ما يستحق الاهتمام، لأن الصينيين قد لا يعلّموننا أغانيهم ونصير نمشي ونطنطن بألحانهم، لكنهم يضعون لمسة على كل ما له بعد ثقافي/سياسي/صناعي. الأدهى والأخطر أن تأتي مثل التحري تبحث عن البصمات، ولا تجد بصمة صينية واحدة في مشهد "الحادث".

كل حاملة طائرات أميركية تغادر الخليج، ستجدها تحوم في بحر الصين. التركيز الآن سياسي واستراتيجي بعد أن كان اقتصاديا. التأثير الثقافي قادم. تخيلوا لو أن الصينيين اقتنعوا بتأثير "الذباب الإلكتروني" العربي، وطبقوه علينا مع القليل من تقنيات الاختراق تتجاوز الحجب على الإنترنت وبعض من الذكاء الاصطناعي الذي يطورونه في سباقهم مع الغرب!

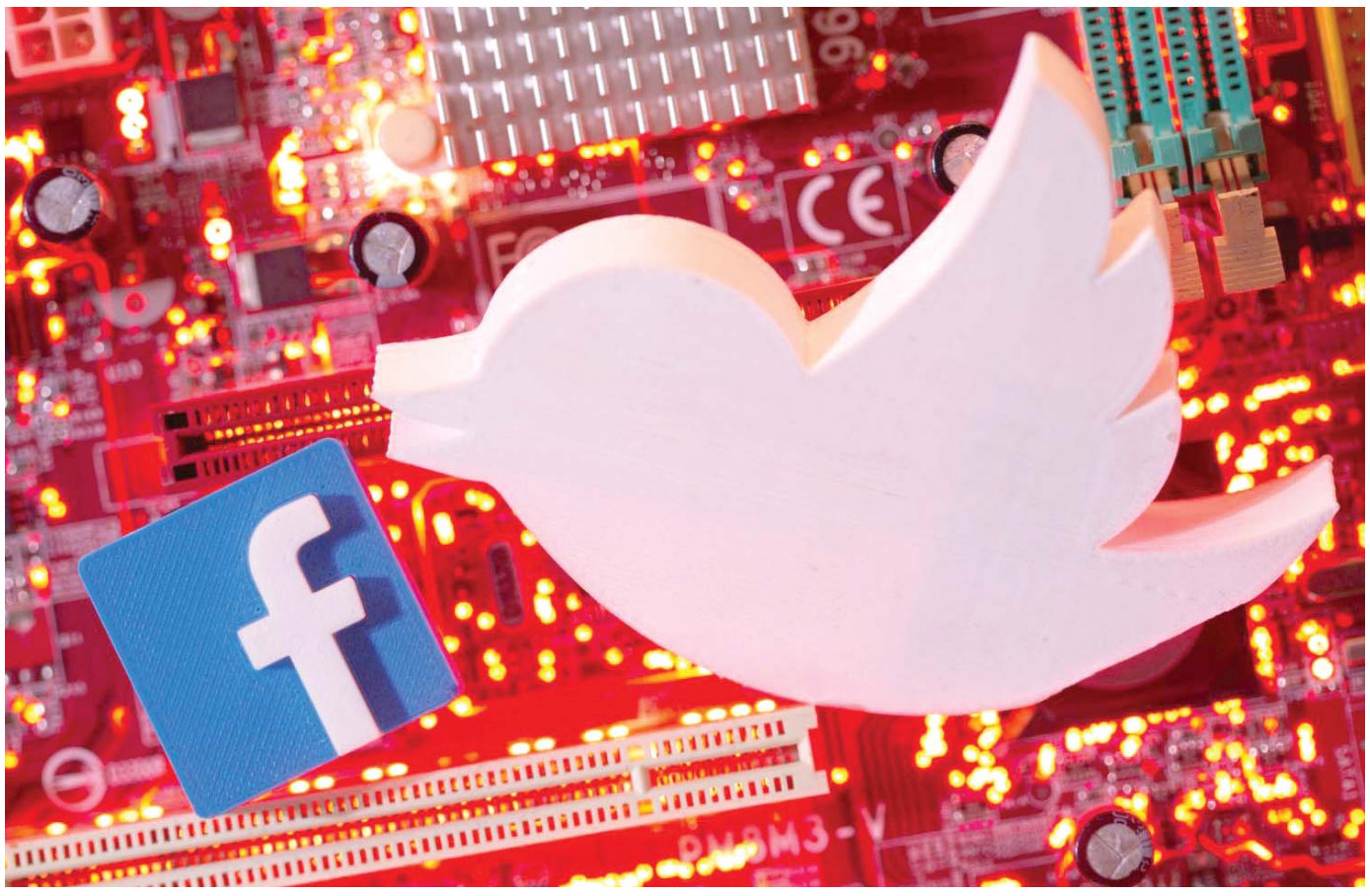

هذه ساحة المعركة الجديدة

من يريد أن يكتسب شهرة في الغرب عليه أن يهين تراثه

حاتم عبدالهادي السيد
كاتب مصري

لمن يكتب الناقد؟ وهل يتوجب عليه أن يتبسط في طروحاته لتصل رسالته إلى المبدع/ القارئ؟ وما حدود الكتابة الأدبية؟ وهل هناك منهاجية محددة يتوجب على الناقد أن يسلكها كي يخاطب العامة؟ مع العلم أن النقد يخاطب الخاصة في الأساس، وربما يتوسل القارئ والمبدع -أحياناً- فيبسط كتابته، كما أزعم، وهل مطلوب منه أن يتبسط، أم على القارئ أن يرتفع بالدرس القرائي لديه ليبحث عن مضامين المصطلحات ليحدث الحراك المأمول؟ ثم ما مدى حدود النقد وطموحاته؟ وهل يمكن اعتبار التأويل منهاجية يمكن التعويل عليها لتفكيك شيفرات النص؟ ثم إذا أمتنا المؤلف -على حد قول رولان بارت- ثم الناقد، بل والنص فماذا سيتبقى للقارئ في ظل هذا التخبط، وقد أماتوا القارئ؟ وبالتالي فهذا "موت للإله"، كما يزعم كثيرون كذلك.

إنها الصيحات الكبرى التي تخرج علينا كل يوم؛ فهل نحن بصدد نقد جديد لما بعد المركزيات الأوروبية، وما بعد الحداثة وغير ذلك دون النظر إلى تراثنا النقدي العربي الكبير؟ وهل ثمة نظرية نقدية عربية يمكن لنا أن نصوغها بعيداً عن "التغريب النقدي" مثل: وماذا بعد المسألة الأوروبية في النقد؟ وهل نتحدى المتن بالهامش -عبر المدرسة الكولونيالية- لنعيد البحث عن الهوية والتراث، لتبيان وجود منهج عربي نقدي جديد عبر "الدراسات الثقافية" في تاريخنا النقدي الكبير، وعبر صراعات العولمة وغيرها؟ وهل ثمة "فلسفة ثقافية نقدية" تعيد تأسيس هوية النقد العربي في ضوء الكم الهائل من النظريات الأوروبية والأميركية التي غدت تقليدا و"موضة"، بل وعقدة -عقدة الخواجة- لدينا كعرب؟

لنتمثل الأنموذج الغربي باعتباره سفراً مقدساً لا يجب تخطيه، وبالتالي نسقط جهود النقاد العرب -على مر تاريخهم- من الخارطة النقدية العالمية. ألم يئن الأوان لطرح منهاجية عربية، وصوغ مصطلحات عربية، بل ونظريات -وهي كثيرة- لإعادة الاعتبار إلى "الهوية النقدية العربية" بعد اتكاء منجزنا النقدي الآن على طروحات ونظريات وأفكار غربية؟ وهل يمكن العودة إلى القديم وتطويره بمنجز حداثوي لمواكبة التغيرات والتلاحقات المتعاقبة والسريعة في مجالات الفكر والفلسفة النقدية عبر المركزيات، ولعبة الأمم، والقوة، والنفوذ، والهيمنة، والعصرنة، والأمركة؟

هل نقف لنقلد؛ وفقط؟ دون أن نستوضح إلماحات تجيب عن سؤال: وماذا بعد كل هذه الما بعد حداثيات التجديدية، والتجريبية؛ ودون النظر إلى طبيعة المجتمعات العربية، وظروفها، وخصوصياتها الثقافية والفكرية، وفلسفتها، بل وعلومها؟ ثم هل نتحرر من عقدة الغرب لنعود إلى الأصالة نافضين عن تراثنا النقدي كل ما هو مخترع وحادث غربي، أو بالمعنى الأدق: هل ثَمّ ضوء في نهاية نفق النقد الذي نمارسه بجهالة.. وبمعلومية، ثم نقول مفاخرين: نحن تنويريون، ودعك من الظلاميين والعرب المتخلفين -للأسف- وهي ركامات خلّفها الاستعمار على مر الأجيال، وأوقعنا فيها "دعاة التنوير بالباطل" عبر صيحاتهم "تيار الوعي"، ومسايرة كل ما هو غربي واعتباره نصاً مقدساً لا يجب تجاوزه، فغدونا نقول كل صباح: كما يقول رولان بارت، وعلى حد قول ريكور، وكما قال سوسير، وغيرهم، ولم نقل على "حد قول الجرجاني" أو السكاكي، أو القزويني، أو حازم القرطاجني، وغيرهم من علماء النقد واللغة والفلسفة، والبلاغة وغير ذلك في العلوم والفنون والآداب، وغيرها... ثم أليس هناك فلاسفة عرب لنتمثلهم، أم أن إمامنا -الآن- وشيخنا هو بارت وريكور في النقد، والسيدة سوزان برنارد وغيرهم؟

لسنا ضد الحداثة، بل للأسف نمارسها على غير هدى، عبر بيئاتنا العربية وقيمنا الإسلامية وهويتنا وهوانا الشرقي، فالنقد يطلع من الغرب، والعلم يطلع من الغرب، بل المأكل والمشرب والموضة وغير ذلك كلها بنكهة غربية غرائبية، لهدم الهوية والثوابت والقيم، وبعيدا عن فكرة المؤامرة، فهذه هويات ومركزيات لا تتناسب مع هوانا الشرقي، فالشمس -على امتداد العصور- تطلع من الشرق، وهذه هي الثوابت، وبعيداً عن "العقد والتعصب للعرب" -الذين تخلفوا حيناً- لكننا لن نظل نسمهم بالعجز ونضعهم في باب الظلمات، وهم كذلك المستنيرون عندما انفردوا بالغرب سبقوهم، وإلا فمن في أوروبا ينكر إسهامات إدوارد سعيد وإيهاب حسن، بل وحاتم الجوهري وغيرهم من نقادنا المغاربة والشوام والمصريين، والعراقيين واللبنانيين، بل والخليجيين كذلك، وفي الإمارات والسعودية وغير ذلك.

ولنكن منصفين، ولنتكلم بكل صدق: هل منجزنا النقدي العربي الآن، بل عبر مئة عام هي عمر النقد الجديد، نحن راضون عنه حقيقة؟ وهل تحذلقاتنا كنقاد تجعلنا نوثق أو نستشرف منهاجية عربية للنقد، ونحن نقلد الغرب الأميركي أو الشمال الأوروبي، ونصدق مقولات كاذبة مثل: ماذا قدم النقاد العرب -باستثناء القلة- سوى رؤى شخصية تدافع كثيرون منا على الانتقاص من قدرها؛ لأن هناك من النقاد -الذين ندعوهم بالكبار- تابوهات ومقدسات وأيقونات؛ جرفونا معهم للاستسلام والخنوع بدعاوى التنوير والتقليد لكل ما هو غربي.

لن نقول كذلك: لقد تآمروا على النقد والهوية، وحاولوا أن يمحوا الهوية بحجة "اللحاق بركب الحداثة والتمدين"، ولم يخرجوا متسلحين بالتراث، فوجدنا من يريد أن يكتسب شهرة في الغرب: ينتقد التراث، وينفيه بدعاوى الحداثة، واعتباره عقيماً، لا يقدم الأنموذج، ولا يطرح النظرية، ومن هنا كان لا بد من الانجراف إلى الغرب الكولونيالي، وما بعد مدرسة براغ، واستتباعات الحداثة، وما بعد الحداثة عبر النموذج الأمثل للعصرنة والأمركة وعالم ماك وغيرها ليتم غزونا ثقافيا وخنوعنا سياسيا وتركيعنا اقتصادياً، عبر لعبة الأمم وصراع الحضارات والثقافات، دون النظر إلى التجاور والتمدين والإرث الإنساني الكبير للحضارة والثقافة العربية، بل وإلى المناهج النقدية العربية، والفلسفية أيضاً.

هناك تعمد لنفي التراث العربي الفكري والنقدي بدعاوى الحداثة المزيفة واعتباره عقيما لا يقدم الأنموذج ولا يطرح النظرية

سيأتي يوم يعود النهر إلى مجراه، ويعود البحر إلى صفائه، ويعود إلى العرب مجدهم الحضاري والتاريخي، وليست هذه أحلام شعراء، بل مقادير واقع عالمي يتجه نحو الشرق. وعما قريب عبر "عالم ما بعد كورونا" سنرى تجديداً في خارطة العالم وقيادته، وتسيير عقلية العالم الكبرى، رغم التسلح النووي وصراع الهويات والحضارات والقوة والأقطاب، فهناك قطب الأقطاب الأكبر والهيولى العظيم الذي تنجذب إليه كل الأقطاب عبر الكون والعالم والحياة.. فهل من جديد؟ ربما!

ص10 وص11 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

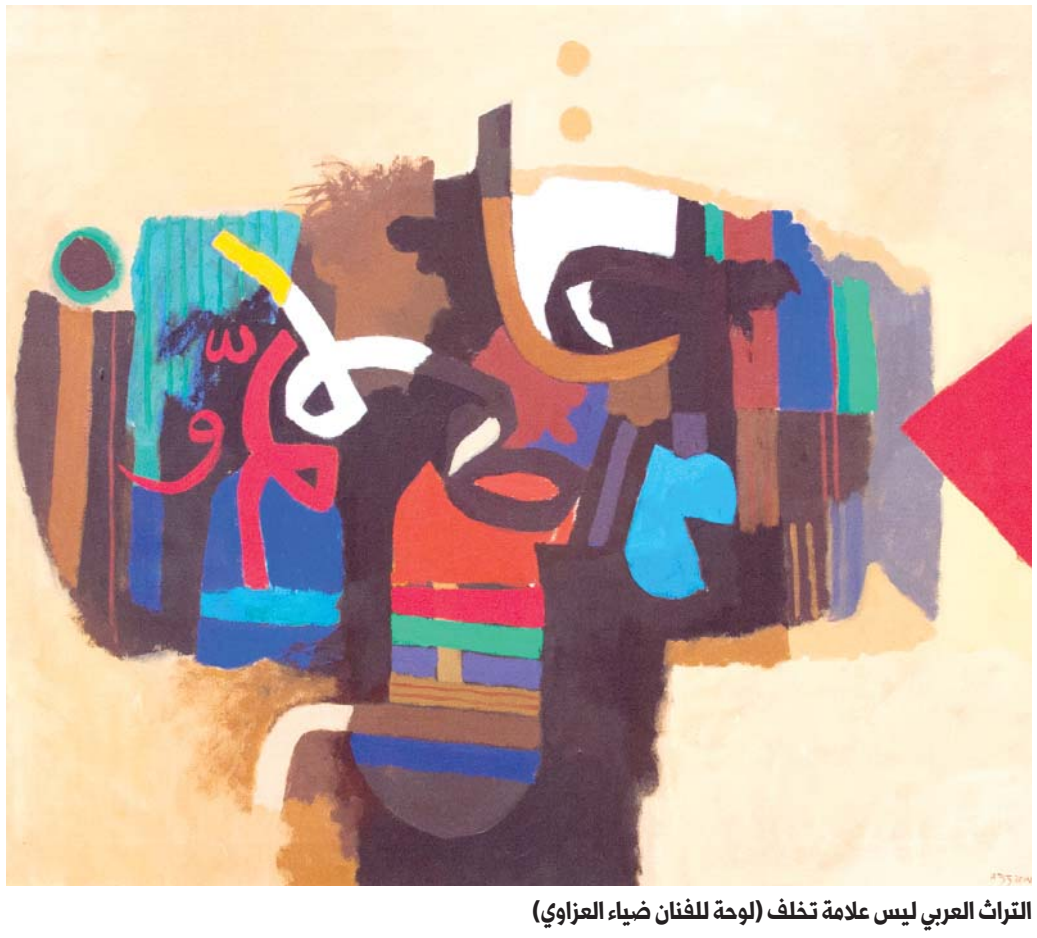

التراث العربي ليس علامة تخلف (لوحة للفنان ضياء العزاوي)